الوضع الصحي العام في الجزائر قبيل الثورة

- بين الإحصائيات الفرنسية الرسمية والواقع التاريخي -

أ/ لعوج لصرالدين أستاذ مساعد– جامعة سيدي بلعباس

يصطدم التأريخ للواقع الصحي في الجزائر خاصة، وتأريخ الثورة الجزائرية عامة بمسألة النزعة التدميرية للتأريخ تحت تأثير أهواء إيديولوجية متنوعة المشارب، منها الاستعمارية العنصرية، ومنها الدفاعية الذاتية التمجيدية والتبريرية للتاريخ، وهو ما أفرز مغالطات في حقيقة الإحصائيات سواء منها الرسمية (1) أو الفردية(2) ولهذا أصبح التأريخ المقارن النقدي الذي يحرص على النقد الذاتي البناء للواقع أكثر من ضرورة في البحث التاريخي المعاصر(3).

ولا يمكن تاريخيا فهم أصول الثورة الجزائرية دون الوقوف على الأوضاع العامة الاقتصادية والاجتماعية التي كان يعيشها الجزائريون خلال العشر سنوات الغامضة التي سبقت اندلاعها (1945-1954م)، فسياسة الاغتصاب والاستغلال والمصادرة والاستحواذ على موارد الجزائريين الزراعية والصناعية حولت شرائح المجتمع برمته إلى أدوات مسخرة لخدمة الاقتصاد الرأسمالي المنهار غداة الحرب العالمية الثانية، من خلال تحالف أقلية عنصرية من المستوطنين الجشعين، مدعمين من قبل مجموعة من الشركات والمؤسسات المالية الفرنسية والعالمية(4)، والغريب أنه تم كل هذا النهب تحت إشراف إدارة تملك كل وسائل القمع و القهر لتنفيذ رغباتها وحماية امتيازاتها ولو على حساب إفقار وتجويع وإبادة الجزائريين، الأمر الذي انعكس سلبا على الحالة الصحية العامة للجزائر.

وتمثل الصحة -كما هو معلوم عبر التاريخ - مؤثرا من أكثر مقاييس حالة الدولة سواء في التخطيط الاجتماعي والاقتصادي أو الثقافي والحضاري عموما، لكن في حالة الجزائر بين (1945-1954م) فالتناقض كان صارخا بين تقديرات إدارة الصحة العامة والواقع المأساوي للسكان المحليين، فرمزية الإحصائيات ليس لها علاقة بالسكان الجزائريين المسلمين، بل تمثل صورة مباشرة للسكان ذوي الأصول الأوروبية(5).

وإذا كانت إحصائيات الصحة العامة في الجزائر عموما تعكس نوعا من التطور، مما جعل الإدارة تتباهى بتطورها على أساس حساب تزايد عدد الأطباء حيث ارتفع عددهم من 1033 طبيب سنة 1939م إلى 1356 طبيب سنة 1946م إلى 1629 طبيب سنة 1952م ليصل عددهم إلى 1646 طبيب سنة 1954م، ومن خلال تحسن البنية التحتية للقطاع الصحي التي سجلت عشية 1954/12/31م الأرقام التالية: (12) مستشفى عسكري و (118) مستشفى عام عمومي و (16) مستشفى متخصص و(10) عيادات خاصة، بينما ارتفع عدد الأسرة إلى 24080 سرير، ومعالجة مجموع 17929 مريض في كل القطر الجزائري، بالإضافة إلى إيواء 2420 مسن في دور العجزة (6).

فهل يجوز للمؤرخ الموضوعي التباهي بهذه الإحصائيات ؟ وكيف يمكن تفسيرها والاستفادة منها؟

لا يمكن أن ينخدع المطلع بارتفاع هذه الإحصائيات الرسمية إلا إذا قارنها بحقيقة الواقع الميداني(7) ، ما لا يمكن أن يعللها الدارس سواء برفض الشعب الجزائري للطب الاستعماري فقط – كما ذهبت باحثة فرنسية التزمت كثيرا من الموضوعية في تعاملها مع الجزائر-(8)، ولا بدعوى حرص المستعمر على الإبقاء على جزء من الشعب الجزائري في حالة صحية عادية تمكنه من الاستفادة منه وتسخيره في خدمته للعمل لصالحه وخوفا من انتقال عدواها فقط – كما ذهب المفكر الفرنسي " بول سارتر"(9) ، بل كانت موجهة لخدمة الأقلية الأوروبية أساسا.

وللاستدلال على التناقض الموجود بين الواقع المعاش وحقيقة هذه الإحصائيات الرسمية، أستشهد هنا بهذا الجدول الرسمي الذي يقارن بين عمالتي الجزائر ووهران وبقية مناطق الجزائر، مميزا بين المسلمين والأوروبيين من حيث توزيع أعداد الطاقم الطبي مقارنة بمجموع السكان(10):

	الأعـــداد سـنـة1952				مجموع السكان	
العمالات	طبيب	صيدلي	طبيب أسنان	قابلة	مسلمين	أوربيين
الجزائر ووهران	958	318	260	310	817200	518300
بقية الجزائر	808	296	176	253	7861800	404000

من خلال استقراء هذه الأرقام نستنتج نسبة توزيع (01) طبيب لكل 1400 ساكن في المدن الكبرى حيث تسكن أغلبية أوروبية مقابل (01) طبيب لكل (10 ألف نسمة) تصل إلى (30 ألف نسمة) في الجنوب(11)، مما يعكس النقص الفادح لعدد الأطباء، واللامساواة المكشوفة فالمناطق التي تعيش فيها الأقلية الأوروبية هي المحظوظة (12).

وأكدت دراسة طبية متخصصة سنة 1953م حول أمراض الصدر في الجزائر بين سنوات (1947-1953) أن معدلها تضاعف ثلاث إلى أربع مرات عند الجزائريين مقارنة مع الأوروبيين(13) ، وأن مرض الصدر كان هو الداء الأول بين الجزائريين بنسبة 25٪ من مجموع الأطفال الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين (15-0 سنة) في عمالة وهران و نسبة 23.4 ٪ في عمالة الجزائر فيما بين سنتي (1953-1954م) (14).

وكما هو ثابت طبيا أن تفشي أمراض الصدر أو الالتهاب الرئوي انعكاس مباشر للحالة الاقتصادية والاجتماعية العامة المرتبطة بظروف العيش والسكن وانعدام التدفئة وطبيعة مياه الشرب، خاصة وأن ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من إجراءات تعسفية للسلطات الاستعمارية ساهمت جميعها في توسع انتشار الأوبئة واتساع سوء التغذية إلى درجة انتشار المجاعة في بعض المناطق التي أثرت كثيرا على السكان الأصليين حيث أحصت التقديرات ما يلي:

سجل وباء الحمى سنة 1945م إصابة 15920 حالة مسجلة، وارتفاع مذهل بعد سنة 1946 للحالات المسجلة في مرض variole، وارتفاع نسبة وفيات إلى 175‰ سنة 1954م، في الوقت الذي سجل 36 ‰ بين السكان الأوربيين، وتجاوز عدد يتامى الأبوين في أطفال المسلمين 1958 حالة مسجلة سنة 1954م، فالبؤس وسوء التغذية والجهل كان حظ هؤلاء الأطفال(15).

مهما ساهمت التقلبات المناخية وما ترتب عنها من توالي سنوات الجفاف أو الفيضانات مما هدد السكان بالمجاعات والتشرد، فإن دراسة مقارنة بين السكان الأصليين والأوروبيين من جهة وبين مقاطعات الساحل والمناطق الداخلية تعكس مما لا يدع للشك الصورة الحقيقية للاستعمار الاستيطاني بالجزائر، الذي كان وراء كل هذه الجرائم ، وتتضح مسؤولية السياسة الاجتماعي الفرنسية خاصة في تدهور الوضع الصحي العام(16).

ساهم هذا الوضع الصحي في تعقيد الظروف العامة، وعمم صور الاستياء واليأس والغضب المكبوت الذي سينفجر فجر أول نوفمبر 1954م، ولهذا لا نستغرب أن يكون الوضع الصحي أهم الميادين التي ستوليها الثورة الجزائرية أهمية كبرى انطلاقا من تعميم التطبيق الصارم لإجراءات الوقاية والنظافة العامة، إلى الاهتمام بالتنظيم الصحي وتعميمه على كامل التراب الوطني(17).

الإحالات

[1]-Gouvernement général de l'Algérie; Direction générale des Finances – Service de Statistiques Générale – Annuaire statistique de l'Algérie; septième volume; Alger 1954.

2-Levi – Valencien (A); La Tuberculose en Algérie et son destin; Alger Med № 11 Novembre 1953; p:968

3-الشيخ (سليمان)، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين – دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة- ترجمة محمد حافظ الجمالي، الدار المصرية اللبنانية بإذن من القصبة، الجزائر 2003، ص. ص: 8-9

4-نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

-.Union Parisien Merabaud- Banque industrielle de l'Afrique du Nord.

- L'Union des mines . -

[5]- Amir (Mohamed); Contribution à l'étude de l'histoire de la santé en Algérie autour d'une expérience en A.L.N willaya 5 – Réflexions sur son développement; O.P.U. ; Alger 1986; p: 78

[6]-Gouvernement général de l'Algérie; Op cité ; pp: 55-66.

7-البخاري (حمانة)، فلسفة الثورة الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2005، ص. ص: 88-91

[8]- Turin Yvonne; Affrontement culturelle dans l'Algérie coloniale; Maspero; Paris 1971; pp: 342-354

[9]- فانون (فرانز)، معذبو الأرض، ترجمة، جون بول سارتر في تقديمه للكتاب

10- Op cité; p: 75 Amir (Mohamed);

11- Egreteau (M); Réalité de la nation Algérienne; Edt sociales; Paris 1957; p: 135

12-الشيخ (سليمان)، مرجع سابق، ص: 208 عن Barbel (R) ، حقائق حول الجزائر الاقتصادية والسياسية في جانفيي 1945م، ص. ص: 19-20

13-Levi – Valencien (A); La Tuberculose en Algérie et son destin; Alger Med № 11 Novembre 1953; p; 968.

14-Ibid; p: 987

15-Gouvernement général de l'Algérie; Op cité ; pp: 50 et-62

16-طلاس (مصطفى) و العسلي (إبراهيم)، الثورة الجزائرية، طلاس للدراسات والنشر، دمشق 1984، ص. ص: 63-73

17-Guentari (Mohamed); Organisation politico- Administrative et militaire de la révolution Algérienne (1954-1962); O.P.U. Alger2000; pp: 289-198